بين الثقافة والإعلام

علي سليمان

قد يكون من الصعب تقديم تعريف محدد للثقافة أو الاعلام يمكن الاطمئنان إلى دقته، في زمن انفجار المعلومات المتواصل، وفي زمن التطور المتسارع لوسائل الثقافة والاعلام، وفي عصر تداخلت فيه وسائل الثقافة بوسائل الاعلام، وامتزجت فيه المادة الثقافية امتزاجا شديداً بالمادة الاعلامية، واختلط فيه دور الاعلام، بدور الثقافة، وبدأت الفوارق بينهما، تبعا لهذا التمازج أو التداخل، بالتقلص والذوبان، إلى حد أصبح من العسير فيه، التفريق بين الوسائل الاعلامية والوسائل الثقافية، أو بين المادة الاعلامية، والمادة الثقافية، أو بين ما هو ثقافي وما هو إعلامي.

لقد أدى انفجار المعلومات وتدفقها عبر وسائل الاعلام الحديثة واعتماد الثقافة في انتشارها، على هذه الوسائل، إلى تمتين العلاقة بين الثقافة والاعلام وإلى تزايد التداخل أو التمازج، بين المادة الثقافية والمادة الاعلامية، وان كان هذا التمازج ليس جديدا، وليس وليد هذا العصر، أو وليد ثورة الاعلام التي اقتادت المادة الثقافية عبر قنواتها المتعددة وجعلت منها المادة الأساسية التي تغذي هذه القنوات.

فالعلاقة بين الثقافة والاعلام، علاقة قديمة قدم الثقافة، بل قد يكون الاعلام أقدم من الثقافة، ربما لان حاجة الانسان القديم للاعلام كانت أكثر إلحاحاً وأكثر التصاقاً بضرورات البقاء - من الثقافة.

فاذا اعتبرنا ان حاجة الانسان هي التي تؤدي إلى ولادة الظواهر الانسانية ثقافية كانت أو غير ثقافية أو تحدد عمرها وتطورها، فان حاجة الانسان القديم للاعلام كانت أكبر، وأكثر إلحاحاً، لأنها ألصق بالحياة وبضرورات البقاء. أليست الأصوات والإشارات التي كان يصدرها الانسان القديم لينذر بها أفراد أسرته من الخطر أو يدعوهم بها إلى الفعل نوعا من أنواع الاعلام البدائي الذي أملته الحاجة وضرورات البقاء.؟!.. قبل أن تكون للانسان أية ثقافة أو أية أفكار..

لن أتوقف هنا طويلا، فليس من أهداف هذا البحث معرفة أيهما أسبق، أو أقدم، الثقافة، أم الاعلام، أو الخوض في بحث تاريخي طويل قد تعوزه الوثائق. ولكن ما يهمنا بالدرجة الأولى معرفة العلاقة بين الثقافة والاعلام، ومعرفة، تطور هذه العلاقة وتأثيرها على الاعلام والثقافة معا. بل على الحياة الانسانية.

فالعلاقة بين الثقافة والإعلام - كما أشرنا - علاقة موغلة في القدم، لكنها لم تكن واضحة أو متبلورة في الماضي، فقد كانت المادة الاعلامية شديدة التداخل والالتصاق بالمادة الثقافية، مبثوثة فيها، ممتزجة بنسيجها، يوم لم تكن هناك وسائل إعلامية معروفة أو مستقلة.

إلا أن تطور المادة الثقافية والاعلامية تبعا لتطور الحياة البشرية، قد أدى إلى وجود نوع من التمايز، أو التباين، بين وسائل الثقافة ووسائل الاعلام، فبدأت وسائل الاعلام المستقلة بالظهور، وكان صدور أول صحيفة بعد اختراع الطباعة في القرن الخامس عشر[1] بداية استقلال المادة الاعلامية بوسيلة خاصة، وبداية عصر الاعلام أو ثورة الاعلام التي انتشرت خلال هذا القرن، من خلال الإذاعات ووكالات الأنباء ومحطات البث التلفزيوني...

ولكن ما ان استقلت وسائل الاعلام وتنوعت حتى طغت وبدأت باحتلال مواقع الثقافة وغدت من أهم وسائلها ومن أقدرها على نشرها وإيصالها، بل أصبحت القناة الثقافية الرئيسية التي توصل إلى الناس بسرعة ويسر، مختلف أنواع النتاج الإنساني في جميع ميادين المعارف والعلوم والفنون والآداب...

وهكذا انتقلت أو تطورت علاقة الثقافة بالاعلام، من مرحلة الاشتراك بوسائل واحدة في الماضي البعيد، هي الوسائل الثقافية، إلى مرحلة تمايز الوسائل أو استقلالها، ثم العودة مؤخرا إلى وسائل مشتركة ان لم نقل واحدة.

ولكن رغم ما تعرضت له هذه العلاقة من تلون أو تعرج، فانها بقيت مستمرة ووثيقة،

وأعتقد أن هذه العلاقة مرشحة للبقاء والاستمرار، رغم طغيان الاعلام المعاصر على الثقافة ومحاولته الجلوس في مقاعدها، اذ ليس هناك من مادة إعلامية خالية من الثقافة والتثقيف، أو مادة ثقافية خالية من الاعلام فكل عمل ثقافي هو في أحد جوانبه أو وجوهه، عمل اعلامي. أليست الثقافة أو الاعلام، تعبيرا عن الرغبة في التواصل مع الآخر أو نوعاً من الحوار، مع الآخر، ومحاولة الوصول إليه، لمخاطبته، أو التأثير عليه، أو التأثر به. أليس في طبيعة الثقافة ومادتها وهدفها، جانب اعلامي ووسيلة اعلامية وهدف

اعلامي؟ يعبر فيها الانسان عن موقفه من نفسه أو من الآخر، أو الحياة، أو الكون، ومن معتقدات الآخر وقيمه وإشكالاته... ثم أليس من اليسير اكتشاف الثقافة في الاعلام، واكتشاف الاعلام في الثقافة؟!

فالمثقف عندما يكتب، أو يبدع أثراً أدبياً أو فكرياً أو فنياً. فإنه لا يكتب ليقرأ ما كتبه على نفسه فحسب. إنه يكتب بالدرجة الأولى لأنه يريد أن يقرأ نفسه للآخر، يريد أن يقول للآخر أو للمجتمع: هذا أنا، هذه هي آرائي وتجاربي وأشواقي ومفاهيمي ومعتقداتي ووجهة نظري...

إنه بقدر رغبته في تفنيد أو تسفيه مفهوم أو موقف أو رأي أو معتقد.. يريد أن يكرس مفهومه هو، أو موقفه، أو رأيه، أو معتقده، الذي يؤمن بصلاحيته وجدارته، أو يؤمن بضرورة إشاعته في نسيج الحياة البشرية. أليس في عرضه، أو في دفاعه عما يؤمن، أو في تفنيده لما يكره أو يستقبح أو يعادي، موقفاً إعلامياً أو جانباً إعلاميا؟!

إن من يقرأ شعرنا القديم، شعر شاعر القبيلة، أو شاعر البلاط، أو شاعر الاتجاه السياسي المعارض. يكتشف المادة الاعلامية فيه.. بل يكتشف هذه المادة في مختلف أنواع النتاج الإبداعي عبر العصور، في الشعر وفي الطقوس الدينية القديمة التي كانت تقام للآلهة أو الملوك أو يعثر عليها في التراتيل والأناشيد الدينية، أو في بناء المعابد وزخرفتها وإضفاء صفة المهابة والجلال عليها، لتكون عامل تأثير وسيطرة على مشاعر الناس وحواسهم أو لتكون شاهدا على عظمة ما يؤمن به الملك أو الزعيم. أو وسيلة دعاية للآلهة، أو الملك، أو لزعيم القبيلة.؟!

لقد كان الحاكم في الماضي أو زعيم القبيلة، يقرب أو يحتضن أبرز شعراء قبيلته، ليكون لسانه، أو وسيلة اعلامه، فكان يختار أقدرهم على إبراز فضائل القبيلة وسجايا زعيمها، من كرم وشجاعة ومروءة ومناعة وإباء... وعلى كشف مثالب اعداء القبيلة ومناقصهم، فقد كان في ذلك العصر بمثابة صحيفة اليوم. أو بمثابة الإذاعة أو التلفزيون، سواء أخذت المفاخرة أو المناظرة أو المفاضلة بين القبائل، بشكل مناظرة بين شعراء القبائل، أو أخذت شكل تسريب أو نشر، قصائد الفخر أو المديح أو الهجاء، أو شكل العقاب أو الاسترضاء أو التهديد.

فقد كان شاعر القبيلة، شاعراً إعلامياً، ان صح القول. ينطق باسم القبيلة أو باسم زعيمها معبراً عن مصالح القبيلة أو أطماعها، أو موقفها، أو وجهة نظرها، يفند موقفاً، أو رأياً، أو معتقداً، أو يشيد بموقف، أو رأي، أو معتقد...

كما يمكننا أيضاً أن نلمس الجانب الاعلامي في إبداعات المجتمعات القديمة سواء كانت شعرا أو غناء أو طقوسا دينية أو لوحات فنية أو زخرفة أو نقوشا أو بناء... ليس بالضرورة أن يكون الهدف من وراء هذه الإبداعات الأدبية، إعلاميا، بل ربما كان هدف مبدعيها بعيدا كل البعد عن الترويج والدعاية، ربما كان استجابة عفوية للإيمان والاقتناع، أو استجابة للمشاعر الصادقة تجاه الإله أو الملك أو القبيلة أو زعيم القبيلة... إلا أن بناء الاهرامات أو بناء معابد الآلهة القدماء أو مدافن الملوك العظماء وما رافق ذلك من طقوس ومن جلال وإبداع. كان يترك في نفوس الناس أعمق الأثر ويملي عليهم مشاعر الخشوع والإجلال والإيمان...

أليست قصيدة الفرعون اخناتون (القرن الرابع عشر قبل الميلاد) التي يمجد فيها إلهه الجديد الواحد «أتون» أجمل قصيدة دينية إعلامية يدعو فيها شاعر وحاكم، اسرته وحاشيته وشعبه، إلى اعتناق مذهبه الجديد والايمان بالإله «أتون»..

ما أجمل مطلعك في افق السماء
أي أتون الحي، مبدأ الحياة،
فاذا ما اشرقت في الأفق الشرقي
ملأت الارض كلها بجمالك...

مهما بعدت فان أشعتك تغمر الأرض،
ومهما علوت، فان آثار قدميك هي النهار
واذا ما غربت في أفق السماء الغربي
خيم على الأرض ظلام الموت....

ما أبهى الأرض حين تشرق في الأفق،
حين تضيء يا اتون النهار
تدفع أمامك الظلام...

يا خالق الجرثومة في المرأة،
ويا صانع النطفة في الرجل
ويا واهب الحياة للابن في جسم امه....
ألا ما اكثر أعمالك
الخافية علينا
أيها الاله الأوحد.
يا من خلقت الارض كما يهوى قبلك.
لكي تخلق كل اعمالك:
خلقت الشتاء لتأتي اليها بالبرد
وخلقت الحرارة لكي تتذوقك
وانشأت السماء البعيدة، واشرقت فيها
لتبصر كل ما صنعت،

انت وحدك تسطع في صورة اتون الحي،
تطلع، وتسطع، وتبتعد وتعود،
انك تصنع آلاف الاشكال
منك أنت وحدك،
من مدائن، وبلاد وقبائل
وطرق كبرى وانهار....(٢)

ثم أليست آيات القرآن الكريم وما فيها من اعجاز وبلاغة وتصوير وقصص وأمثال وحجج، أهم إعلام اقنع المجتمع العربي الجاهلي المتعنت وأفحم خصوم الدعوة الإسلامية وأرغمهم على التسليم بصحة ما بشر به الرسول العربي؟ فقد كانت المادة الاعلامية تنتشر أو تدخل في صلب الآيات الكريمة أو في مختلف أنواع الإبداعات الثقافية الفنية الأخرى... دون أن تنفصل أو تستقل عنها بوسائلها الخاصة.

أما الآن وبعد أن تطور مفهوم الاعلام وظهرت وسائله المستقلة، فان الاعلام يرد لـوسائل الثقافة بعض دينها، أو يثأر من هيمنتها أو تسلطها عليه فيسعى إلى إحتلال مواقعها وإلى أن يصبح الوسيلة الأساسية لنشر الثقافة وتوصيلها إلى الآخرين، تماما كما كانت الثقافة في الماضي تتضمن الاعلام وتفرض عليه أن يكون داخلا فيها أو جزءا من نسيجها العام.

ولكن ما يمكن قوله رغم تبادل الأدوار، أو تداخلها، أو تغيرها، بين الثقافة والاعلام: إن الثقافة والاعلام بقيا دائما متلازمين متكاملين، وان اختلفت الوسائل، وتباينت الأهداف، أو تباين تأثيرهما ودورهما، بين حين وآخر، أو بين مجتمع ومجتمع، وأنهما الآن أكثر اقترابا، بل أكثر تداخلا وتمازجاً، من أي وقت مضى. بل إن اقترابهما وتشابه وسائلهما، ولد الكثير من اللبس أو التداخل بين مفهوم الثقافة ومفهوم الاعلام، وبين وسائلهما وأهدافهما، ولعل هذا اللبس أو التداخل هو الذي حدا ببعض المثقفين أو العاملين في ميدان الثقافة، إلى المغالاة في الحديث عن الفوارق بين المفهومين، وعن الاختلاف في الوسائل والاهداف، بل إلى افتعال فوارق واختلافات غير حقيقية.

إلا أن المغالاة في الحديث عن الاختلاف، أو عن التداخل، أو الامتزاج، لا يلغي وجود تباين بين المفهومين أو بين الوسائل. لكنه يبقى تباينا في النوع، أو في الدرجة. وليس في الغاية أو الهدف العام. فالثقافة والاعلام بمفهومها الصحيح، يهدفان إلى زيادة تنوير الانسان وتوعيته، وجعله اكثر اقتراباً من حياة الناس وأكثر فهما أو إحاطة بالأحداث، أو تعقيدات الواقع، وأكثر قدرة على اتخاذ موقف أسلم.

لقد تطور مفهوم الاعلام تطوراً كبيرا خلال هذا القرن، واعتقد **انه لم يعد يقتصر على تقديم الاخبار الدقيقة أو على نشر الحقائق والمعلومات الدقيقة الصادقة بهدف التنوير والاقناع[٣]. ولم يعد دوره مقتصرا على جمع المعلومات وبثها فقط[٤] ولم يعد مجرد تشويق وتسلية وترفيه.**

فقد تطور دور الاعلام واتسع مفهومه واصبحت مهمته تبدأ في نقل النشاط الانساني بجانبيه المادي والروحي منذ أقدم العصور وحتى اليوم، وبثه في قنواته المختلفة...

أو أصبحت مهمة الاعلام «هي الوساطة في الحوار بين فئات المجتمع، وليس الإدلاء بالتعليمات أو التوجيهات...»[٥]

وأصبحت مهمة التلفزيون بعد أن بدأ يحتل المكانة الأولى والأساسية بين وسائل الاعلام كما يحتل الكتاب المكانة الأولى بين وسائل الثقافة، «تشمل الاعلام والترفيه والتثقيف والتعليم.»[٦]

بل يمكن القول ان الاعلام اصبح القناة الرئيسية لبث أو نشر كل أنواع المعارف والعلوم والآداب والفنون والأفكار والآراء والمعتقدات. وأصبح مرآة الإنسان المعاصر في تقدمه وازدهاره وتفتحه، أو في انكماشه وتخلفه وعجزه... وغدا الوسيلة الأقوى والأفعل، في اقتلاع الحواجز بين الأفراد والشعوب والدول وفي خلق التفاعل بين الأفكار والمعتقدات والأيديولوجيات المختلفة..

أليس الاعلام الآن، هو الوسيلة الأولى في تقريب المسافات التاريخية والجغرافية بين الانسان والانسان؟ وفي بسط العالم كله أمام الناس، كل الناس، بكل ما يحمله هذا العالم في ثناياه؟ أليس وسيلة لرجه، وهز بناه الفكرية والاجتماعية والاقتصادية، هز معتقداته ومسلماته ومفاهيمه القديمة؟

أليس وسيلة إخراج الإنسان من عزلته التاريخية، وانكماشه وانغلاقه واجتذابه من مكانه القصي النائي، ثم وضع البشر جميعا، وجها لوجه، في حالة من التعارف والمكاشفة؟..

ألا ينهض الاعلام المعاصر بالمهمة الصعبة التي تبدأ بنقل الخبر وتنتهي بمحاولة نقل العالم، ونقل النشاط الانساني أو التراث الانساني بكل تنوعاته ووجوهه وروافده..؟.

ولكن أليس من الانصاف أن نقول أيضاً: إن الإعلام لا يقوم دائما بهذا الدور الإيجابي، أو ينهض بهذه المسؤولية، بل يمكن القول: إنه كثيراً ما يقوم بدور مغاير، فيطمس الحقائق ويشوه المفاهيم ويحرض على البغضاء والكراهية والاحقاد والعنصرية، ويهبط بذوق الأفراد ويبث الأكاذيب ويستلب وعي الشعوب..

فالاعلام قناة يمكن أن توصل الطيب والخبيث في آن. يمكن ان تكون وسيلة تشويه وإكراه وتخويف، وسيلة سيطرة على الفكر والإرادة والمعتقد والسلوك، وأداة اقتلاع من الجذور ومن الخصوصية التاريخية.

بل يمكن أن يكون أداة تشريد وفصل عن الذات، عن الهوية الثقافية والخصوصية الحضارية.!.

ألا نرى، كيف يحاول الاعلام الاستعماري والاعلام الصهيوني، تزوير الحقائق، وطمس أو تشويه تراث الشعوب، وبث الأكاذيب في رداء العلم وكيف يشجع على إغراق العالم النامي أو العالم المتخلف، بأمواج الاستهلاك. بالثقافة الاستهلاكية والأفكار الاستهلاكية والايديولوجيات الاستهلاكية والفن الاستهلاكي الهابط المبتذل كما يغرقها تماما بالأزياء والأدوات والاجهزة ومختلف المنتجات الاستهلاكية؟

ألا نرى، كيف يحاول هذا الاعلام المتقدم، وسيلة وإخراجاً... ان يبهر، أو يستلب إرادة الشعوب ووعيها وقدرتها على التمثل والتمييز والاختيار..؟

ألا نرى، كيف يدس لنا الاكاذيب بالحقائق، والثقافة بالاباطيل والأوهام، والقبيح بالمثير، والمبتذل الهابط بالقليل من الجميل.؟

ألا نرى، كيف يمجد أو يبرر حتى عبر قنوات إعلام العالم الثالث. نزعة التعصب والعنصرية وأساليب الاحتيال الذكية الملفعة أو الملفوفة، ببراعة الاخراج، وبراعة القدرة على تسويغ السلب والاستغلال والقهر والاحتلال؟.

مثل هذا الاعلام يحول الثقافة والاعلام معا إلى أداة استعمارية، إلى سلعة أو أداة تخويف وابتزاز واستلاب.. أو دهان أو زي خارجي، انه يسعى إلى اقتلاع الشعوب من جذورها ومن مفاهيمها وقيمها وخصوصيتها، ليرميها في الفراغ والبلبلة والمجهول ويبعدها

عن امكانية صنع مستقبلها وتوجيهه وامتلاكه.

فالإعلام الاستعماري أو الصهيوني كثيرا ما يتسلح بالتقدم التكنولوجي وبالعلمية والموضوعية ليخذل الحقيقة والأمانة العلمية.

ولسنا بحاجة هنا إلى الإشارة طويلا كيف يرسم هذا الاعلام صورة العربي، كيف يتحدث عن العرب وحقوقهم، كيف يتحدث عن الانسان العربي والحضارة العربية والاسلامية، انه عندما يتحدث عن العرب تاريخا وثقافة وحضارة وسلوكاً، فانه لا يرى، بل لا يقدم غير الحماقات والمنازعات والفوضى والاقتتال الاقليمي والطائفي والقبلي. والانسان العربي في هـذا الاعـلام، يفتقر إلى التوازن العقـلي والعاطفي والسلوكي، ويعجز عن فهم الواقع أو فهم الحقائق، كما يعجز عن استثمار زمنه واستثمار طاقاته وثرواته، وعن تمثل حقائق العصر وتمثل التجارب التي يمر بها ويعيشها ويعجز أيضاً عن الدفاع عن حقوقه، بل يفرط بها ويتواطأ ضدها.. معتمدا في هذا كله على نماذج من الحكام الأغبياء أو الخونة، أو النماذج الفردية التي يمكن أن توجد في كل مجتمع، فكيف بمجتمع متخلف.

ألا نرى ايضا، كيف تتحول وسائل الاعلام المتقدمة التي تستخدمها الدول المختلفة إلى أدوات وقنوات تخدم واقع التخلف وتكرسه وتسوغه وتلبسه الزي الحديث المخادع، بدلا من تقويضه أو زعزعة بنائه ومرتكزاته.

ثم ألا نرى كيف تتحول في الكثير من هذه الدول إلى أداة تمجيد الحماقة وتكريس الخنوع والمخاوف والأوهام وتستلب الارادة وتلغي دور العقل بحجة الإيمان بالإله أو بالغيب، وتصادر الارادة الحرة الفاعلة بحجة الايمان بالقضاء والقدر...

وهنا يجب التفريق بين الاعلام كوسائل، وبين استخدام هذه الوسائل، والتأكيد على ان العلة ليست في الاعلام كوسيلة من وسائل النقل والاتصال والتأثير، بل في الاخلاقية أو العقلية التي تتحكم بهذه الوسيلة وتوجهها وتستغلها لاغراضها وأطماعها.. فالإعلام يمكن أن يكون قناة نظيفة بقدر ما يمكن أن يكون قناة ملوثة سامة. ويمكن أن يكون من أهم وأغزر قنوات الثقافة والتربية والتعليم والتوجيه والبناء المادي والروحي، ومن أكبر العوامل المسعفة في إغناء وإثراء الحياة الانسانية، من خلال توفير عامل التواصل والتفاعل الحضاري بين البشر، ومن خلال قدرته على نسف أو تذويب بقايا الخرافات والأوهام والرسوبات الميتة الجامدة، في العقول والنفوس والسلوك، والـتي تحول دون تفتـح الشخصيـة والانسانية وبعث حياتها وقدراتها على النمو والعطاء والابداع...

بل يمكننا الوقوف، على مدى عزلة الثقافة المعاصرة وضيق مساحة انتشارها وتأثيرها، لولا وسائل الاعلام الحديثة وقنواته التي تنقلها وتتدفق بها إلى كل اطراف الأرض، وتحولها من غذاء خاص بالصفوة، أو بالطبقة، إلى غذاء عالمي، مثلما يمكن الوقوف على مدى فقر الاعلام وشحوبه وبؤسه، لولا المادة الثقافية المبثوثة في برامجه وألوان نشاطه...

إلا أن سيطرة الإعلام الحديث على عقول الأفراد وسلوكهم ومفاهيمهم والاستسلام إلى تأثيره الكبير في مختلف الميادين، أمور بدأت تثير المخاوف، بمقدار ما تثير الإعجاب، وخاصة في الدول النامية أو الدول المتخلفة، التي لم تفلح بعد في بناء مجتمعاتها. هذه الدول لا تنتج وسائل إعلامها لكنها تستوردها، من الدول الغربية، وكثيراً ما تستورد المادة الاعلامية والثقافية والفنية وخبراء الاعلام أيضاً، مما يضع إعلام هذه الدول في موقع التابع، وفي موقع المتلقي، ويعرض بالتالي هذه الدول إلى التبعية الاعلامية والثقافية مع كل ما يرافق هذه التبعية من مخاطر.

فالإعلام الأول ينتج ويصدر ويؤثر، بينما الاعلام الثاني يستورد ويتلقى ويتأثر. وهذه العلاقة القائمة على الاختلال والتأثير من طرف واحد، تدفعنا للتحذير من مخاطر هذا الخلل وعن ضرورة ايجاد حد من التوازن أو توفير حماية الشعوب من طغيان اعلام الدول الغربية الإستعمارية وضرورة توفير المعايير والضوابط التي تتحكم في تدفق، أو في تلقي مواد هـذا الاعـلام عـبر قنواتـه ووسائلـه المتعـددة والمتشعبة. فالاستسلام لمرض التلقي، ينقل لدول العالم الثالث أكبر المخاطر ويهدد وعيها وأداتها وخصوصيتها الثقافية وتمايزها. وسلخها من ذاكرتها التاريخية ومن خصوصيتها ويزرعها في غير تربتها وفي غير مناخها، ويسلبها قدرتها على الانتاج والابتكار والتحدي، ويحول بين شعوب هذه الدول، وبين امكانية بناء ثقافتها المعاصرة وممارسة تجاربها الذاتية وتمثل واقعها وظروفها، وفرز ما تراه ضارا بها أو غير ملائم لها، عما تراه ملائما مع ظروفها وطموحاتها وخصوصيتها الثقافية والحضارية.

وهذا لا يعني أنني أدعو إلى الانغلاق على الذات، أو على نوع واحد من الثقافة أو الاعلام، فهذا شيء غير ممكن حتى لو أردناه، بل أدعو إلى التحكم بالمادة الثقافية والاعلامية الموجهة لنا، وإلى الحذر الشديد عند اختيارها وتقديمها للمواطن العربي.

ولعل أخطر ما يحمله لنا هذا الاعلام الاستعماري إضافة إلى ما ذكرناه، فرض طابعه ونموذجه ومعاييره على أبناء شعبنا، وعلى مستقبل أجيالنا. والتلقي غير الواعي. هذا الخليط الفاسد الشهي والمغري، الذي يقدمـه لنـا باعتباره مادة ثقـافـة وتوعيـة متقنـة الاختيار بارعة الاخراج، لكنها غالبا ما تكون موجهة ضد الثقافة وضد الوعي وضد الارادة.

إنها كثيراً ما تقلب المفاهيم الصحيحة أو تشوهها، فتمجد النزعة الفردية والعنف وحب التملك والاحتيال الذكي والاستهانة بالآخر في سبيل تحقيق مصلحة الأنا أو مطامع الأنا.

ثم ان هذا الاعلام يولد لدى الشعوب المختلفة احساسا زائفا بالوعي، واحساسا توهميا بالثقافة والمعرفة، مع ما يرافق هذا الاحساس أو الوهم، من ميل الى الكسل والتواكل والاقتناع والاكتفاء بالمعلب الجاهز، فينحط الوعي تبعا لهذا الاحساس الزائف وهذا الاكتفاء الواهم، وتضعف الارادة، ويموت الحافز، وتتراجع القدرة على الابتكار والخلق، ويتحول الفرد الى مجرد متفرج على الاحداث او متلق للمعلومات دون أن يكون صانعا لها أو طرفا في اكتشافها...

لكن تجدر الاشارة هنا، الى أن مثالب الاعلام ومخاطره، ليست محصورة بالاعلام الصهيوني والاستعماري وحده، فلقد تحولت وسائل الاعلام، على يد الانظمة القمعية او القوى المستغلة في العالم الثالث، الى وسيلة قمع فكري وعاطفي والى وسيلة ارهاب وتشويه، أو وسيلة الهاء وتخدير وترويض. وقد استخدمتها هذه القوى في فرض افكارها ومفاهيمها ونزواتها ومعاييرها المتخلفة، فهبطت بالمعنى الحقيقي للاعلام والثقافة وتحولت الثقافة على يدها الى مجرد لغو وتسلية وقشور، وتحول الاعلام الى دعاية مبتذلة والى وسيلة ترويج وتخدير وإلهاء أو الى مطية سياسية تمجد وتسوغ وتبرز وتغطي ما يجب تعريته وتفنيده وادانته.

الا أن الثقافة بمفهومها المعافى، تبقى رغم تسلط السياسة والاعلام عليها، ورغم تعرضها للتشويه والمتاجرة والاستغلال السياسي، الضمانة الاساسية التي تصون الوعي الانساني وتحافظ على التوازن والقدرة على المحاكمة والتمييز، والمادة المؤثرة التي لا تستطيع الدول الاستعمارية أوالانظمة الغاشمة أو قوى الاستغلال، ان تلغي تأثيرها الغاء كاملا أو تتحكم بها أو تخضعها تماما لمعاييرها ومفاهيمها واغراضها..

إن أي قوة لا تستطيع أن تمنع الكاتب أو الشاعر أو الفنان، من أن يعبر، عبر رموزه وصوره وإيحاءاته وألوانه وألحانه، عما في الواقع من بشاعة وقبح وطغيان، أو عما فيه من جمال وحيوية وتفتح، وعما فيه من محاولات لكم الأفواه وتقييد الارادات واستغلال الانسان. فاذا ما تمكنت من منعه عن التعبير المباشر فانها تعجز عن منعه من التعبير عبر الرمز والإيحاء واللون واللحن...

فالفنان الحقيقي لا يكون مبدعا، ما لم يعبر عن همه وهم الناس من حوله، عن معاناته ومعاناتهم، عن موقفه من محاولات التشويه او الإكراه أو السيطرة على الإرادات والأفكار والمشاعر وعن موقفه أيضاً من محاولات تحرير الإرادة الانسانية وتعزيز الوعي الإنساني...

صحيح أن بالإمكان شراء بعض المثقفين أو تضليلهم أو إخضاعهم أو إكراههم على الصمت. لكن من المحال شراء جميع المثقفين أو إسكات جميع الأصوات النابعة من المعاناة والألم والوعي والإخلاص مع الذات ومع الانسان، ومن المحال التحكم حتى بالأصوات الثقافية الموالية وطمس كل ما فيها من تلوينات وإيحاءات ورموز وإشارات، تكون من العوامل المحرضة على الوعي والإرادة الحية.

كما ان تعاظم الوعي على مخاطر طغيان الاعلام وعلى تزايد مثالبة ومساوىء استخدامه، يبشر بعودة الثقة إلى الثقافة وبتعزيز مكانتها كمادة أساسية في بناء الوعي الانساني، وانقاذ ارادة الانسان من الاستلاب الاعلامي، وعودة اهتمامه مجددا بالمادة الثقافية التي تخاطب العقل والوجدان معاً، وتفعل فعلها البطيء والعميق في وعي الانسان وسلوكه.

ان حديثنا عن الاعلام يفضي بنا بالضرورة، إلى الحديث عن الثقافة، نظرا للترابط الوثيق بينهما كما أن الخلط والتداخل واللبس بين مفهوم الاعلام ومفهوم الثقافة، دفع بالكثيرين إلى محاولة تعريف الثقافة أو تحديد مفهومها.

فما هي الثقافة إذا؟!

لقد أشرنا في بداية هذا البحث إلى صعوبة تقديم تعريف دقيق للثقافة في ظل التطور المذهل للثقافة ولوسائلها المتعددة، إلا أن هذه الصعوبة لا تلغي امكانية تقديم تعاريف هامة لمعنى الثقافة ولتطور مفهومها، فهناك عشرات المحاولات، وعبر مراحل متباعدة أو متقاربة، لتعريف الثقافة وتحديد مفهومها.

في المعاجم العربية، تعني كلمة «الثقافة» **تقويم الاعوجاج واكتساب الحذق والمهارة** أو تعني الحذق والاتقان وضبط الاصول، والمعرفة بجيد الشيء ورديئه(٧)، هذا المعنى لا يتسع لمفهوم الثقافة المعاصر لكنه لا يتعارض معه.

أما في كتب الأدب العربي القديم فيبدو أن مفهوم الثقافة والأدب كان مفهوما واحدا أو مشتركا، وان كلمة أدب، كانت تعني الثقافة وكان المثقف يسمى أديباً في ذلك العصر.

جاء في معجم الأدباء لياقوت الحموي ١١٧٩ - ١٢٢٩م هذا التعريف:

«الفرق بين الأديب والعالم، ان الأديب من يأخذ من كل أحسنه فيألفه، والعالم من يقصد بفن من العلم فيعتمله أي يعمل فيه بجد وجهد،(٨)»

وقد سبقه ابن قتيبة ٨٢٨ - ٨٨٩م الذي قال قولا مشابها: «إذا أردت أن تكون عالما فاطلب فنا واحداً، واذا أردت أن تكون أديباً فتفنن في العلوم(٩)».

وقد ورد في طبقات فحول الشعراء لابن سلام (١٣٩ - ٢٣١هـ) ما يشير إلى اتساع مفهوم الثقافة وذلك في معرض الحديث عن الشعر:

«للشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات: منها ما تثقفه العين، ومنها ما تثقفه الأذن، ومنها ما تثقفه اليد، ومنها ما يثقفه اللسان»(١٠)

فالثقافة هنا تشمل مهارات الجوارح والحواس وتؤكد على يقظتها وفعاليتها، كما تشمل نشاطاتها، مراقبة وتدخلا وفعلا. ولا تعني **الحفظ أو التجميع فقط، وهذا تعريف يقترب من التعاريف الحديثة** للثقافة باعتبارها «حصيلة النشاط الانساني الابداعي»(١١)

تعريف الثقافة:

وهكذا تطور معنى الثقافة، من تقويم الاعوجاج واكتساب الحذق والمهارة، واتسع مفهومها وتنوع بتنوع الحياة وغناها، فلم تعد الثقافة تعني النتاج الأدبي والفني والفكري وحده، ولم تعد مقتصرة على مجرد معلومات نظرية أو مقولات فكرية تنقل أو تحفظ بمعزل عن مدى تأثيرها بالحياة فعلا وسلوكا وممارسة.. بل تعدى هذا كله ليشمل كل نشاط إنساني من شأنه أن يضيف إلى التراث الانساني اضافة حية فيها ابتكار وخلق، واصبح مفهوم الثقافة يشمل، كل ما يعبر عن فاعلية الانسان ونشاطه ووعيه على علاقته بنفسه وبالآخر،

وعلاقته بالكون أو بالواقع الذي يعيش فيه، وموقفه من هذا الواقع ومدى تأثره به، أو ما يعبر فيه عن قدرته على الانتفاع بهذا الواقع، وتجنيده لمصلحة الانسان وخدمة طموحاته وحاجاته.

فالثقافة بهذا المعنى، نشاط إنساني إبداعي وانجازات وإضافات مادية وروحية في شتى ميادين الحياة، فنا وفكرا وأدبا وعلما وفعلا خلاقا وسلوكا وانماط عيش. وليست حفظا أو نقلا أو تكرارا أو تقليدا لنموذج ثابت أو مهارات منقولة. إنها إضافة أو ابتكار أو تطوير، إنها موقف من الحياة، موقف من الآخر والمجتمع والأحداث...

إنها علاقة حية متحركة واعية وفاعلية مع الواقع والحياة، تحمل خصائص وهوية معاناة الفرد أو الطبقة أو المجتمع أو الأمة التي تبدعها أو تنتجها، فاذا ما عجزت عن هذا تحولت إلى معلومات أو محفوظات أو منقولات.. وخرجت من إطار مفهوم الثقافة.

إعلان مكسيكو بشأن السياسات الثقافية يعرف الثقافة بأنها «جماع السمات الروحية والمادية والفكرية والعاطفية التي تميز مجتمعا بعينه، أو فئة اجتماعية بعينها وتشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة، كما تشمل الحقوق الانسانية للانسان ونظم القيم والتقاليد والمعتقدات...»[١٢].

تعريف المثقف:

ويمكن تعريف المثقف أيضاً بأنه: من يعي واقعة أو عصره أو يتمكن من التعبير الحر عن هذا الوعي، فكراً أو علما أو فناً أو أدباً أو ممارسة، وهو الذي يعمل على التأثير في الواقع لصالح الحياة ولرسم ملامح المستقبل، ومن يقدر على الاتصال الحي والواعي بالماضي والحاضر، بذاته وبالآخرين، ويلتقط ما هو حي وجوهري في الركام الميت وركام الزمن وركام الأحداث وركام التراث وركام الواقع.

انه من يضيف، لا من يكرر، من يبدع، لا من ينقل، من يؤثر ويتأثر، من يترجم معاناته وتجاربه ووعيه إلى فعل أو إلى رأي أو إلى موقف من الآخر ومن الحياة والمجتمع والكون، بل من العصر وقضايا العصر..

ويعرّف ليف كوغان الثقافة، بأنها «أحد المقومات التنظيمية للحياة الاجتماعية وبأنها حصيلة النشاط الانساني ابتداء بعملية الانتاج الآلي وانتهاء بتجليات الفكر الانساني الرفيعة الذي يتميز بحرية الخلق والابداع»[١٣]

ويعرفها د. محي الدين صابر بأنها: «مجموعة النشاط الفكري والفني في معناها الواسع، وما يتصل بها من مهارات، أو يعين عليها من وسائل، فهي موصولة بمجمل أوجه الانشطة الاجتماعية الاخرى، مؤثرة فيها، متأثرة بها، معينة عليها، مستعينة بها، ليتحقق بذلك المضمون الواسع لها، متمثلا في تقدم شامل للمجتمع في كل جوانب سعيه الحضاري انتاجا وارتفاعا، وأخذا وإعطاء، في تفاعل خصب وعطاء متجدد»[١٤].

إلا أن هذا التشابه في تعريف الثقافة بمفهومها العام والواسع لا يعني أن مضمونها واحد أو متشابه، ولا يلغي التباين بين الثقافات، ليس حسب المراحل التاريخية، وليس في المستوى الإبداعي أو في الروحية والخصوصية، بل في المضمون والاهداف أيضاً.

فاذا كانت الثقافة بمفهومها العام والايجابي، نشاطا إبداعيا ووعيا وتعبيرا عن هذا الوعي، وموقفا من الحياة والاخرين، فهذا لا يعني انها من مادة واحدة، أو ذات مضمون متشابه، أو أنها تسعى إلى تحقيق هدف مشترك... بل هناك دون ريب ثقافات مختلفة ومتباينة، ليس في المستوى الإبداعي أو في الخصائص أو الهوية، أو في وسائل التعبير فحسب، بل هناك ثقافات تختلف باختلاف الفئات التي تنتجها، أو باختلاف البيئات أو الظروف أو الأفراد أو الأنظمة أو المراحل الزمنية أو الطبقات التي وضعتها، لتعبر عنها وعن همومها ومصالحها..

هناك ثقافة الطبقات المستغلة. وهناك الثقافة العنصرية والاستعمارية التي تسعى للحط من شأن الشعوب وتشويه ثقافتها أو طمسها وبالتالي إلى استلابها والسيطرة عليها.

فإسرائيل وقنواتها الصهيونية المنتشرة في العالم، تقدم عبر وسائل الثقافة والاعلام أكثر الصور تشويها وبشاعة عن العرب وعن الانسان العربي، وتتعاون مع وسائل الاعلام والثقافة الاستعمارية، على تشويه أو طمس الجوانب الحية والابداعية في حياتنا وفي تراثنا الثقافي والحضاري أو التشكيك بصحة اكتسابها للعرب.

إسرائيل وبرامجها:

ان هذه الوسائل التي تعمل بجهد متواصل واتقان، على طمس حق الشعب العربي الفلسطيني في أرضه وفي تحرره، وتحاول طمس ثقافته أو انتحالها، تحاول أيضاً ان تقدم للانسان العربي عبر أكثر ما في الثقافة العالمية تحللا وهبوطا وانحرافا، واكثر ما في ثقافتنا وتراثنا تخلفا وجمودا وانغلاقا. انها عبر برامجها ومسلسلاتها تقدم لنا كل ما يدعو او يروج للكسل والتواكل واللامبالاة والتسليم بالقضاء والقدر والرضى بالمقسوم والاصطبار على الظلم... ومن يستمع إلى برامج إذاعة إسرائيل الموجهة للعرب يقف على خطورة المادة المقدمة إلينا، فيرى أو يسمع، اكثر الاغاني ابتذالا ودمامة، وأكثر الامثال استهانة بالارادة والعقل، وأكثر حكايات التاريخ العربي دموية وبشاعة، وأكثر أنواع الشعر الحديث اسفافا، واكثر الاخبار اثارة للضغائن والاحقاد والانقسامات واكثر القصص الاجتماعية شذوذا وتعبيرا عن التخلف والقسوة والانحطاط العقلي والخلقي.

فاسرائيل تعي جيدا دور الثقافة والاعلام، وترى في طمس الثقافة العربية وفي تخريب مفاهيم الإنسان العربي وتشويه ذوقه وقدرته على الفرز السليم والمحاكمة الصحيحة وفي تشكيكه بجدارته وبقدراته وبإمكانية نهوضه أكبر ضمان لأمنها، وأكبر عامل من عوامل استمرار التخلف العربي واستمرار احتلالها للأرض العربية باعتبار الثقافة والوعي والارادة الحية والثقة بالنفس من أهم عوامل نهوض الشعوب وتحررها.

وهناك بالمقابل الثقافة التقدمية الانسانية المنفتحة على العالم

المتفاعلة مع الثقافات والحضارات والمفاهيم والافكار. الثقافة التي تؤمن بالانسان وتجعل منه هدفها الاساسي وتسهم في جعل الحياة اكثر أمناً وأكثر غنى وأكثر تنوعا وجمالا..

ثم هناك الثقافة الدينية المتعصبة المغلقة على تعاليمها النهائية والتي لا تقبل اي حوار أو تطوير أو تجديد أو تفاعل أو انفتاح على متغيرات الحياة وعلى روح العصر.

وهناك أنواع من الثقافات.. لا نريد هنا الدخول في محاولة لحصرها أو الحديث عن خصائصها، بل سنكتفي بما تحدثنا به عن المفهوم العام للثقافة وعن علاقتها بالإعلام وتطور هذه العلاقة وتأثيرها على الثقافة والاعلام والحياة معا.. لنتوقف عند الثقافة العربية والاعلام العربي.

فهل يمكننا الحديث عن ثقافة عربية معاصرة وإعلام عربي معاصر، بالمعنى الصحيح لمفهوم الثقافة والاعلام ؟

ثم اذا كان لدينا مثل هذه الثقافة ومثل هذا الاعلام، فما هي ملامحها وخصائصها ؟

هل لهما حقا خصوصية وتمايز؟

هل لهما دور مؤثر وإيجابي في تغيير البناء الفكري والسياسي والاجتماعي للمجتمع العربي ؟

أم أنهما يزيدان من بلبلة بنائه الفكري والسياسي والاجتماعي، ويسهمان في زعزعة الروابط التي كانت تجمع بين أبناء الامة الواحدة، والحضارة الواحدة؟. دون قدرة على إعادة البناء وتجديد الروابط..

وهل للثقافة دور يتباين أو يختلف عن دور الاعلام أو يتمايز عنه؟

أسئلة تثير الاجابة عليها، الكثير من الجدل والخلاف في واقع عربي ما زالت تتنازعه الانقسامات الاقليمية والسياسية الحادة، وتتحكم فيه معايير التعصب السياسي والمذهبي والاجتماعي، ويفتقر إلى النقد العلمي النزيه المتحرر من المؤثرات والضغوط غير الموضوعية.

هذا الواقع قد انعكس على الثقافة والاعلام اكثر مما انعكس في الثقافة والاعلام، أو اكثر مما نجحت وسائل الثقافة والاعلام العربية في نقل هذا الواقع المتخلف وتعريته والتحريض على زعزعة بنائه الفوى الراسخ...

لقد استعاضت عقلية التخلف، بالوسائل الاعلامية والثقافية الحديثة والمتطورة، عما يمكن أن تحدثه هذه الوسائل من تحول هام في العقلية والسلوك والمفاهيم، بل جعلت من الوسيلة المتطورة بديلا عن المضمون المتطور أو نقيضاً له. وتخلت عن الهدف، واكتفت بالوسيلة، شأنها في ذلك، شأن من يكتب أكثر مضامين الشعر تقليدا، بأكثر اشكاله تطورا وتحررا، ثم يدعي أنه يكتب شعرا حديثا.

أو كقروية أمية محرومة من العيش في المدينة معزولة عن الثقافة تلبس «الجينز» وتعتقد انها بلباسها هذا، قد اختصرت المدنية والتعليم والثقافة. «واصبح بامكانها أن تفاخر بأنها امرأة عصرية».

ما أريد قوله: إن واقع التخلف العربي قد نجح إلى حد كبير في جعل وسائل الثقافة والاعلام العربية، جزءا من التخلف بدل ان تكون أهم عامل من عوامل تقويضه..

وهذا لا يعني ان الاعلام العربي والثقافة العربية المعاصرين لا يسهمان بأي دور ايجابي في التهيئة لتحول اجتماعي وفكري. بل من الانصاف الاشارة إلى أن وسائل الثقافة والاعلام العربية، رغم عشوائية ما تقدمه ورغم وقوعها في الغالب تحت سيطرة من لا يؤمن بدور الثقافة، قد أثرت تأثيراً ملحوظاً في خلخلة المفاهيم والاعراف والمسلمات المغلوطة وبذرت بذور الفضول، وحب الاطلاع، ونزعة التساؤل عند الاجيال.. ويسرت إمكانية الاحتكاك أو التفاعل الفكري والسياسي والاجتماعي والوجداني وإمكانية التحول الاجتماعي والفكري..

كما ان تكاثر المدارس وانتشار المعاهد العلمية والجامعات ومراكز الدراسات والبحث ودور النشر في الدول العربية وتزايد عدد المتخصصين في ميادين المعارف والعلوم والآداب والفنون.. قد أثر بدوره على البنية القديمة المتخلفة للمجتمع العربي. وإن كان هذا التأثير، قد بقي في إطار حدوده الدنيا، ولم يفلح حتى الآن في تحقيق نقلة هامة أو واسعة في التحول الاجتماعي والفكري.

واعتقد ان من القسر أو التعسف أن نتوقع تحولا سريعا أو جذريا في البنية الفكرية والاجتماعية والسياسية العربية، قبل ان تتوفر أو تتضافر العوامل والاسباب الموضوعية لإحداث هذا التحول...

نعود للتساؤل: هل لدينا حقا ثقافة عربية معاصرة، لها خصائصها وملامحها وتمايزها ؟ ولها دورها الهام بين مجمل الثقافات العالمية؟..

لا شك، ان بإمكان الحديث عن ثقافة عربية موروثة لها خصائصها وتمايزها وأهميتها العالمية، ولها إضافاتها الهامة، ودورها الانساني والحضاري البارز بين الثقافات، ثقافة تعبر عن ذاتية الأمة وخصوصيتها وحركة حياتها صعودا وتعرجا، وتعبر عن قدرتها على الابداع أو الإضافات وعن استجابتها للتحدي واستعدادها للأخذ والعطاء للتأثير والتأثر كما تعبر أيضاً عن المعاناة الانسانية والمواقف الفكرية والحياتية وعن الاتجاهات السياسية والصراعات الاجتماعية والسياسية المتنوعة.

هذه الثقافة التي استمرت في الازدهار والتألق والإضافة اكثر من أربعة قرون أدبا وفنا وفكرا ما تزال من اهم عوامل الترابط الواجداني والفكري والمصيري بين أبناء الشعب العربي في كل مكان واحدى الضمانات في استمرارية التلاحم الوجداني والمصيري العربي.

إلا أن التعصب والقسر الحديث عن ثقافة عربية معاصرة، تحمل هذه الصفات ولها مثل هذا الدور، أو لها القدرة على الابداع والإضافة ولها فعاليتها المؤثرة في عملية التغيير الايجابي للبنية العربية الراهنة.

فالثقافة العربية المعاصرة ما تزال في حال تكون أو تبلور، وما

تزال مفتقرة إلى العناصر والعوامل التي تجعل منها ثقافة أصيلة ومعاصرة في آن، ثقافة متصلة بالروح العربية المبدعة وبالجانب الحي والملهم من التراث، نابعة من الواقع العربي والهم العربي ومعبرة عن قلق الانسان العربي ومعاناته وطموحاته ومنفتحة على ثقافة العصر وعلى المستقبل، قدر وعيها لحركة التاريخ قديمه وجديده.

انها مزيج متنافر من الثقافات، اكثر مما هي محصلة لتفاعل وتمازج وتأثر متبادل، بعضها تقليدي موروث وبعضها تقليدي مستورد ومجلوب، وبعضها مستنبت في غير تربته وخارج مناخه، وبعضها ركام توفيقي أو محايد، أو استهلاكي، لا يتعدى القشور، وبعضها مزيج من الغيبي والعلمي، وبعضها ينوس بين هذه التناقضات دون ان يكون لكل هذه الألوان قدرة على الانجاب المبدع.

إلا أن عجز الثقافة العربية عن النهوض بدور مؤثر وفعال في تغيير الواقع العربي، ليس مبررا لليأس من دور ثقافتنا الراهنة ومن إمكانية تبلورها وتعزيز تأثيرها الايجابي..

فالمثقف العربي الآن في حالة مراجعة لواقعه الموروثاته ولمواقفه ولعلاقاته مع ذاته ومع الآخر، وفي حالة بحث عن خصوصيته. وقد استطاع ان يقدم اعمالا ناضجة وهامة في ميدان الادب والفن، وان كان قد اخفق في الميادين الأخرى، نظرا للقيود التي تفرضها قوى القمع والتخلف على فكره وسلوكه. وليس لعجز ذاتي أو لقصور في فهم الواقع.

واعتقد ان المجتمع العربي كله، يعيش الآن، ولو على مستويات متباينة، حالة من التململ والبحث والتساؤل والمعاناة.. وان اصطدامه الموجع والمتواصل بتحديات العصر وبالنكسات والاخفاقات والتراجعات سيولد لديه ولو ببطء حالة من اليقظة العقلية والتفتح الوجداني والغضب الواعي، ويسقط من ذهنه الكثير من المسلمات البلهاء، ويهز لديه الكثير من القناعات الخاطئة.. وهذا كله سيؤثر بالضرورة ليس على حركة المجتمع وحدها، بل على مستقبل الثقافة... إلا أن القيود والمعوقات ما تزال أقوى من عوامل التغيير ومن إرادة التغيير، وما تزال تحول دون ولادة صحيحة لثقافة عربية معاصرة قادرة على الاسهام في اعادة صياغة الواقع وتكوين الانسان العربي فكرا وسلوكا وفعلا...

فما هي هذه الاسباب أو القيود التي تكاد تلغي دور الثقافة في الوطن العربي، أو تمنعها من التبلور والتأثير؟ رغم تزايد انتشار التعلم الابتدائي والجامعي، ورغم انشاء مئات دور النشر والصحف والمجلات والاذاعات ووكالات الانباء ومحطات البث التلفزيوني ورغم ايفاد مئات الشباب العرب سنويا إلى الجامعات العالمية المتقدمة، للتخصص في مختلف ميادين العلوم والمعارف والآداب؟...

لماذا لا نحس بتأثير ملحوظ أو بتغيير جوهري قد طرأ على المجتمع العربي؟

بل لماذا يكرر الواقع العربي تخلفه في ظل هذا التوالد أو التزايد العددي لوسائل الثقافة والاعلام وتزايد نسبة التعليم وتزايد عدد المتخصصين في مختلف الميادين؟ لماذا يزداد هذا الواقع تمزقاً وتنافراً وبلبلة وضعفاً؟

لماذا يتعزز الواقع الاقليمي ويقوى على حساب النزوع الوحدوي أو التضامني؟

لماذا تزداد حالة التراخي واللامبالاة والعبث في وجه المخاطر والتحديات المتزايدة؟...

ثم لماذا تعجز كل وسائل التربية والتعليم والثقافة والاعلام العربية المدججة بالموازنات السخية والكوادر الضخمة والاجهزة الحديثة.. عن تغيير صورة الواقع العربي أو التغيير في هذه الصورة.؟

هل السبب ذاتي، نابع من واقع التخلف؟
أم هو ذاتي وخارجي في آن؟

هل هي عقدة الاستلاب تجاه الموروث، أم عقده الاستلاب تجاه ما هو غريب؟

هل هي التجزئة الاقليمية التي وقعت على جسد الامة فأصابت روحها ووجدانها، وشلت قدرتها على النمو والتفتح والتكامل والابداع؟

هل هي النزعة القبلية، أم هي القبيلة التي أخذت الآن شكل دولة، تمارس كل طقوس القبيلة ومفاهيمها داخل حدودها المغلقة أو المقفلة عليها والمعترف بها عربيا ودوليا؟

أم هي هيمنة واقع التخلف، الذي يفرز فكراً متخلفاً، وفناً متخلفاً، وأدباً متخلفاً، ويفرز بالتالي ثقافة متخلفة؟

هل هو غياب عنصر الديمقراطيين في الوطن العربي، غياب الحوار والتفاعل، ومصادرة أو شراء الرأي الآخر والمعتقد الآخر والاتجاه الآخر؟.

هل هو التباين في عقلية الانظمة العربية وفي نظرتها للثقافة ودورها وفي اعتبار الثقافة تابعة أو خادمة للسياسة لا قائدة أو موجهة لها ؟

هل هي الامية المتفشية في صفوف الاكثرية الساحقة من ابناء الشعب العربي والمتشبثة في العقول والسلوك..؟

هل هي هيمنة الاعلام وطغيان وسائله على المساحة المتبقية للثقافة؟..

أم هو غياب الاستراتيجية الثقافية، أو التخطيط للثقافة؟

أم هو الغزو الثقافي الاستعماري والصهيوني الذي يستخدم أحدث الوسائل الاعلامية والسياسية والاقتصادية لتشويه الانسان العربي فكرا وسلوكا ؟؟

اعتقد ان هذه العوامل مجتمعة، قد أدت إلى عجز الامة العربية عن ابداع ثقافتها المعاصرة، وافقدت ما يسمى بالثقافة العربية المعاصرة حضورها الابداعي، وابطلت دورها كقائدة لحركة المجتمع وموجهة لها، وجعلت منها مجرد زي خارجي او مادة استهلاكية تزيينية أو وسيلة دعائية أو ترفيهية، أو وسيلة تسلية والهاء وتخدير.

واعتقد أن غياب عنصر الديمقراطية وسيطرة النزعة الاقليمية

والسياسة وطغيان وسائل الاعلام والافتقار إلى استراتيجية موحدة للثقافة العربية والانسياق في تيار الاستهلاك الثقافي والاعلامي والانبهار به والعجز عن التواصل الحي مع التراث العربي.. كلها عوامل قد تضافرت لتولد نوعا من الثقافة أو ثقافة أهم ما يميزها:

١ - انها ثقافة محايدة، واعني ثقافة مبعدة أو مبتعدة عن تحليل ومناقشة أهم المواضيع التي تؤثر في حياة المجتمع العربي كالدين والسياسة..

٢ - انها ثقافة تفاؤلية تبريرية، هدفها الاساسي خدمة الاغراض السياسية وتجميل الواقع مهما كان قبيحا، واكتشاف انجازات وبطولات غير موجودة، وتبرير الاخطاء والحماقات، وتوجيه الاهتمامات بعيدا عن القضايا الجوهرية والمصيرية.

٣ - انها ثقافة متعصبة، متعصبة ضد القديم الموروث أو متعصبة له. متعصبة ضد الرأي الآخر والفكر الآخر والاتجاه الآخر وهذا ما يجعلها ثقافة الاتجاه الواحد، والرأي الواحد: أي ثقافة السلطة أو القوة المسيطرة..

٤ - انها ثقافة نقل وتكرار، أكثر مما هي ثقافة تفاعل وتمثل وإبداع، إنها مستلبة حيال التراث أو مستلبة حيال ما هو غريب وأجنبي.

٥ - ثقافة تابعة لا قائدة، تابعة للسياسة والاعلام والاقتصاد والمفاهيم والأعراف.

٦ - ثقافة تسلية والهاء وتخدير، وثقافة عائمة على سطح الاحداث والهموم والمشكلات، منشغلة بما هو ثانوي وعابر.

هذه النماذج من الثقافة ستبقى هي الثقافة السائدة المسيطرة... ما لم تتحرر الثقافة العربية من قيود السياسة العربية وتقلباتها ومزاجيتها وتخبطها، وما لم تتسع الساحة الثقافية للرأي الآخر والفكر الآخر والاجتهاد الآخر، وما لم تنزع القدسية عن أي موضوع أمام تساؤلات الفكر، وما لم نسمح للعقل العربي بالتساؤل والتحليل والنقد بل ما لم نزج الفكر العربي في غمار التساؤل والشك والتحليل والحوار المفتوح والنقد الشجاع واعادة النظر، وما لم نحرره من المخاوف ومن قيود الوثوق والسكون والاتباع...

لقد فشلت كل محاولات اعادة قراءة التاريخ أو اعادة كتابته وفشلت محاولات الاصلاح الديني أو الحوار الديني أو الحوار الثقافي.. ومحاولات الاصلاح الاجتماعي أو البناء الاشتراكي، وفشلت محاولات النزوع الوحدوي، في ظل العقلية العربية المسيطرة على وسائل الثقافة والاعلام التي لا تقبل الحوار والتفاعل بل ترفض الآخر وتعاديه..

ولقد فشلت كل هذه المحاولات لانها محاولات جاءت من الخارج، من رغبة استعراضية، لا من وعي حقيقي ولا من خلال تغيير نوعي في البنية الفكرية والسلوكية أو من خلال اقتناع واع بأهمية التغيير.

لقد فشلت، لانها محكومة بمفاهيم وبنية ثقافية وفكرية غير معنية حقا بهذا كله أو عاجزة عن اعادة قراءة التاريخ برؤية جديدة قادرة على الاستنتاج والاكتشاف واعادة البناء... عاجزة عن قراءة التراث، وقراءة الواقع وقراءة الحياة، قراءة موضوعية..

يصنف أدونيس الثقافة هذه بأنها: «تجعل الجمهور يتحرك ضمن حياة عابرة كالحدث ذاته، كالصورة ذاتها، فمحور هذه الثقافة هو اليومي العابر. وهو الزي.»

وهي تعمم مناخا فنيا وسطا، ومبتذلا في معظم الاحيان وانسجاميا بشكل مخيف.

وهي استهلاكية محض، أي أنها أخيراً لا تبني الانسان ولا تخلق وعيا ولا تفتح افقا.

إنها تنجح في التشكيك بالثقافة الخلاقة، وتنجح في الغاء امتيازات الابداع، وانها مع هذا كله، تظل تابعة لثقافة الطبقة المسيطرة وخاضعة لاشكال سيطرتها الثقافية»[١٥].

والواقع ان نمو وتطور وسائل الاعلام وطغيان هذه الوسائل من جهة والتضييق على الثقافة من جهة اخرى جعلها تذوب في المادة الاعلامية او تصبح نوعا من انواعها وتفقد تميزها الابداعي وتأثيرها الفاعل الكاشف وقدرتها على الامساك بما هو جوهري واستمراري في حياة البشر....

ولكن إذا كانت هذه هي أهم ملامح الثقافة العربية المعاصرة فما هي اهم ملامح الاعلام العربي؟

ثم اين يلتقي مع الثقافة واين يختلف عنها؟

وهل استطاع الاعلام العربي ان يسهم في توحيد ما جزأه الاستعمار والصهيونية وجزأته الاطماع والاهواء الفردية؟ أو أن يعزز الروابط القومية ويوحد المواقف والمشاعر العربية المتباينة في وجه المخاطر والتحديات؟

هل استطاع هذا الاعلام، ان يسهم في اعادة البناء الاجتماعي والثقافي والفكري للانسان العربي، بناء سليما، وان يوصلنا بالواقع الذي نعيشه او بالعالم اتصالا حيا وفاعلا ؟

هل استطاع ان يسمو بالذوق، ويشجع على التساؤل، ويحض على التنافس والبحث والحوار والتفاعل؟

ثم هل يمكننا الحديث عن اعلام عربي له خصائصه ومميزاته وتمايزه وأهدافه الواضحة.

بل هل يمكن ان نسميه اعلاما بالمعنى الدقيق؟

لا شك ان الاعلام العربي المعاصر يشبه إلى حد كبير الثقافة العربية المعاصرة فكلاهما وليد واقع التجزئة والتخلف، وليد عقلية هذا الواقع وذوقه ومعاييره وقيمه ومفاهيمه واتجاهاته المتباينة وأمراضه السياسية والاجتماعية والفكرية...

واذا كان من غير الممكن أن نتحدث عن ثقافة عربية معاصرة ناضجة موحدة متحررة لها خصائصها وتمايزها وأهدافها المشتركة، فان من غير الممكن أيضاً التحدث عن اعلام عربي معاصر متحرر، له خصائصه وتمايزه وأهدافه المشتركة.

وإذا كانت الثقافة العربية المعاصرة عرضة للمصادرة والتضييق

ومزيجا غريبا متنافرا من الثقافة العربية الموروثة ومن الثقافات الوافدة والثقافات الاستهلاكية، فان الاعلام العربي أيضاً مزيج من الدعاية والاعلام والاعلان والترويج والترهات والثقافة الموروثة والثقافة الوافدة أو الثقافة المستلبة.

ولكن علينا ان لا نغفل الاشارة إلى نقطة ايجابية بالغة الاهمية من حيث المدلول استطاع الاعلام العربي ان يحققها أو يشير إليها.

لقد استطاع هذا الاعلام رغم تخلفه وتناقضاته ورغم المؤثرات السلبية عليه، أن يحدث خلخلة في البنية الاجتماعية العربية الثابتة، وخلخلة مماثلة في المسلمات والمفاهيم وانماط السلوك المتوارثة وان يثير فضول المواطن العربي ورغبته في التساؤل والاطلاع والاكتشاف..

صحيح ان هذه الخلخلة لم تؤد إلى خلق تحول جذري. إلا أنه تحول هام بمدلولاته يمكن استثماره في خلق تحول أساسي في البنية العربية السائدة فكرا وسلوكا.. لكن الاعلام العربي عجز عن دفع هـذه التحولات بعيـدا في الطريـق الصحيحـة إلى مـداهـا المؤثر والحاسم، عجز بفعل العقلية التي تحكمه وتقوده وتوجهه.

هذه العقلية التي ما تزال منشطرة مترددة تنوس بين الغيبي والعلمي، بين ما هو تحريري وبين ما هو جامد، بين الثبات وبين الرغبة في التحول والابداع، بين تقديس التراث وتكرار قراءته والتقيد به، وبين الرغبة في اعادة قراءته وتجديده، بين فضول الانفتاح على العالم، وبين التهيب والخوف من هذا الانفتاح او العجز عن التحكم به والافادة منه.

أعود للتساؤل: هل لدينا حقا؟ اعلام عربي معاصر؟

وأسارع للاجابة، فأقول: نعم لدينا اعلام متقدم من حيث الوسائل، متخلف في المضمون قادر على النقل والايصال والتأثير.. لـدينـا عشرات الصحـف والمجلات ووكـالات الانبـاء والاذاعـات ومحطات البث التلفزيوني وقريبا جدا سيكون لدينا قمرنا الصناعي العربي...

ولكن ما هي محصلة كل هذه الوسائل؟ ما هي الجدوى من كل هذا التوسع، وهذا التنوع ؟

لقد بقي الاعلام العربي متخلفا، مستلبا موزعا بين عقليتين أو بين عقليات مختلفة، اختلافا لا يولد ما هو أفضل، وبقي عاجزا عن رسم ملامحه الخاصة وأهدافه، عاجزا عن السيطرة على مادته التي يقدمها للناس، ضائعا بين ما هو اقليمي متعصب وما هو قومي مفتعل، بين ما هو ذاتي بحت، وبين ما هو غريب عن الذات... بين ما هو ثقافي وبين ما هو ترفيهي أو دعائي.. بين ما هو مرحلي وآني، وبين ما هو جامد وثابت....

هذا الاعلام الذي كان بالامكان ان يسهم في توحيد المواقف العربية والمشاعر العربية والذوق العربي، وفي تذويب الحواجز الاقليمية وحشد الرأي العام العربي حول هدف مشترك أو حقيقة أو مطلب، وفي تحريض الذهنية المتلقية الكسول المتقاعدة عن الفاعلية والتساؤل والولادة والتجديد والابداع.. قد أصبح في يد الانظمة المتخلفة القمعية الانعزالية أو الأنظمة الاستعراضية.. جزءا من الواقع العربي المرفوض، وتحول إلى وسيلة لتعميق الخلافات العربية بل إلى وسيلة لتعميق وتسويغ الصراع الاقليمي والاقتتال الطائفي. والتضليل الفكري والتشويه الذوقي، وإلى وسيلة لإلهاء الجماهير وخداعها وتزييف قضاياها ومواقفها وقناعاتها..

بل تحول إلى وسيلة تقلب الحقائق أحيانا أو تطمسها، وإلى أداة تزيد من تجزئة الواقع العربي المنقسم، ومن استلاب العقلية العربية المستلبة.

فالاعلام العربي الراهن. إعلام بلا اتجاه، بلا استراتيجية، ليس على المستوى القومي فحسب، بل على المستوى القطري.

ولعل أخطر ما في هذا الاعلام، انه يولد لدى مشاهديه وهم المعرفة ووهم الثقافة، وانه يخلق نوعا من الرضى أو الإحساس بالامتلاء الكاذب بينما يبقى الوعي غائبا وتبقى الارادة مقيدة..

ان بعض وسائل الاعلام العربية، لا تكتفي بخذلان الحقيقة بل تحاول ان تخلق بدلا عنها أوهاما وأكاذيب تحتل موقع الحقيقة وتنوب عنها.. ثم ان تردد الاعلام العربي وضغطه المتواصل، وانتقاله السريع بين النقيض والنقيض، يترك الانسان العربي بلا اقتناع، بلا هدف معروف أو محدد، فالوسيلة التي يتحتم ان تنقل له الخبر الصحيح والموقف الصحيح والرأي الصحيح. عرضة في كل لحظة إلى الانتقال من النقيض إلى النقيض وإلى تكذيب ما كانت تجهد.. في تأكيد صحته دون اكتراث بالعقل او الذاكرة أو المشاعر.

مثل هذا الإعلام لا يخون دوره ووظيفته، ولا يستهين بالعقل فحسب، بل يشوه ويخون أعمق المشاعر وأكثرها براءة وعفوية، إنه في بعض الاقطار العربية، لم يكتف بالتخلي عن دوره التنويري والتعليمي والتحريري والقومي، بل خان هذا الدور واستبدل به دوراً يخدم مصالح الاستعمار والصهيونية ويخدم واقع التخلف وواقع التجزئة بكل اشكالها..

فإعلام مصر السادات مثلا لم يكتف بتبرير تقاعد مصر وانسحابها من دورها الوطني والقومي والتحرري ومن مسؤوليتها التاريخية بل حاول أن يربطها بعجلة الاستعمار والصهيونية وان يبرر كل هذا ويسوغه. ولم يكتف بمحاولة خداع الشعب المصري واقناعه بصلاحية اغلال كامب ديفيد وجعلها انتصارا كبيرا..

بل سخر قدرة هذا الاعلام وإمكانياته وخبراته ووسائله الحديثة للتصغير من شأن العرب وللاستهـانـة بهم وبقضـايـاهم، أو لإقنـاعهم بصوابية اتجاهه أو جرهم إليه، بل إنه كثيرا ما تلاقى مع اعلاء إسرائيل في تغذية واثارة الاحقاد والفتن الطائفية في بعض الاقطار العربيـة. دون اكـتراث بـالنتـائـج الخطـيرة الـتي تـترتـب عـلى هـذا الموقف...

بعد هذا العرض لواقع الثقافة والاعلام هل بامكاننا القول ان لدينا ثقافة عربية واعلاما عربيا بالمعنى الصحيح؟

وهل نطمح ان نحقق في ظل الاعلام العربي والثقافة العربية. واقعا عربيا جديدا.

وهل يمكن أن نأمل في انقاذ الواقع العربي من مخاطر ما ينتجه

ويقدمه العقل العربي المتخلف عبر وسائل إعلامه وما تفرزه التناقضات العربية وعقول بعض الانظمة التي استهانت بالثقافة وسخرت الاعلام، فجعلت منه وسيلة إلهاء وتسلية ودعاية وتمويه.؟

اعتقد، ان الثقافة العربية الراهنة، رغم محاصرتها وكثرة قيودها ورغم طغيان الاعلام عليها أو تسخيرها لأهداف واغراض غير ثقافية، ما تزال وسيلة الانقاذ الاولى وقناة الوصول الانظف والانقى بعد ان تلوثت أو اغلقت القنوات الاخرى بين ابناء الاقطار العربية، وما تزال وسيلة الرؤية الاشمل والاعمق والتي يمكن ان توحد المشاعر والاهداف من خلال تعميق الوعي العربي على واقعه، وعلى عوامل الاحفاق الثقافي والاعلامي والسياسي وعوامل استمرار توالد التخلف والجمود في وجه عالم يتجدد ويتحول، وفي وجه تحديات تفرض تجديد الرؤية وتجديد المفاهيم قبل تجديد الوسائل والازياء والمقتنيات..

اننا نلمح شيئا من التحول لكنه تحول بطيء.

وقد نحتاج إلى زمن طويل وإلى عوامل متعددة ومتضافرة، وإلى جهد متواصل وإلى مؤثرات متنوعة حتى تقوى عوامل التحول ويقوى تياره وتأثيراته... لكن بالإمكان اختصار الزمن وتعجيل عملية التحول...

وهذه هي المهمة الاولى للثقافة والاعلام
بل المهمة الاولى للمثقفين والاعلاميين العرب.

علي سليمان

قائمة بأسماء المراجع:

(١) يقال ان أول صحيفة صدرت في العالم هي صحيفة «كين كان» الصينية، في عام ٩١١ ق.م كما يقال ان صحيفة الوقائع الرسمية «Acta Daria» الرومانية في عام ٥٨ ق.م هي أقدم صحيفة.

(٢) قصة الحضارة، ول ديورانت مجلد ١ جـ٢ القاهرة ١٩٦١ ص ١٦٩ - ١٧٣.

(٣) الاعلام ووسائله، شاكر ابراهيم، مؤسسة آدم للنشر والتوزيع ١٩٧٥ ص ٣٢

(٤) يحيى أبو بكر، مجلة المستقبل العربي، عدد شباط ١٩٨٠ ص ٥٥

(٥) ابراهيم إمام المرجع السابق ص ٨١.

(٦) سعد لبيب المرجع السابق ص ٦٩.

(٧) لسان العرب والمزهر والعمدة.

(٨) معجم الأدباء، ياقوت الحموي مكتبة عيسى البابي الحلبي، جـ ١ القاهرة ص ٧٣.

(٩) العقد الفريد، ابن عبد ربه، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر جـ٢، القاهرة ١٩٥٦، ص ٤٢٣.

(١٠) طبقات فحول الشعراء ابن سلام الجمحي، السفر الأول، مطبعة المدني، القاهرة، ص ٥

(١١) ليف كوغان مجلة مواقف بيروت عدد آذار ونيسان وبيروت ١٩٧٣ ص ١١ و١٢.

(١٢) اعلان مكسيكو بشأن السياسات الثقافية اليونيسكو، ١٩٨٢ ص ١

(١٣) مجلة مواقف، عدد آذار ونيسان بيروت ١٩٧٣ ص ١١

(١٤) قضايا الثقافة العربية المعاصرة، د. محي الدين صابر، الدار العربية للكتاب طرابلس ١٩٨٣ ص ٩

(١٥) فاتحة لنهاية القرن، أدونيس، دار العودة بيروت ١٩٨٠، ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

دار الآداب تقدّم

مؤلفات حنا مينه

- المصابيح الزرق
- الشراع والعاصفة
- الثلج يأتي من النافذة
- الشمس في يوم غائم
- الياطر
- بقايا صور
- المستنقع
- الابنوسة البيضاء
- المرصد
- حكاية بحار
- أدب الحرب (بالاشتراك مع د. نجاح العطار)
- الدقل
- المرفأ البعيد
- الربيع والخريف
- ناظم حكمت: السجن، المرأة، الحياة
- ناظم حكمت: ثائراً
- هواجس في التجربة الروائية